

الفردانية أفق إنساني

د.نورة عابد *

الملخص باللغة العربية:

الفردانية هي الحالة التي يكون عليها الفرد كيانا مستقلا و متفردا عن الجماعات التي ينتمي إليها وقادرا على اتخاذ قراراته استنادا إلى إمكانياته الخاصة وقدراته المستقلة عن أفراد الجماعة الآخرين الذي ينتهي إليهم الفرد . كما أنها نزعة أو سلوك يؤكد على الخصائص الذاتية للفرد و على سماته ومميزاته الخاصة وذلك بما يتعارض مع ما هو جمعي و عام و مشترك و هذا يعني أن الفردانية تؤكد ما هو خاص ومتفرد – إن الفرد وفقا لمفهوم الفردانية كائن إنساني يمتلك وحدته الداخلية ويؤدي وظيفته كنسق ونظام متكامل و يمتلك استقلالية خاصة في دائرة الوسط الذي ينتهي إليه.¹

ملخص باللغة الإنجليزية:

Individuality is a situation in which the individual is an independent and unique entity from the groups to which he belongs and is able to make decisions based on his or her own abilities and abilities independent of the other members of the group to which the individual belongs. As it is a tendency or behavior that emphasizes the individual characteristics of the individual and its characteristics and special characteristics and that contrary to what is collective and common and common and this means that individuality confirms what is special and unique - this means that the individual according to the concept of individualism is a human being has its

* مخبر الفلسفة وتاريخها – جامعة وهران 2 [noraphilo20@gmail.com]

1 - Louis Dument; Le Concept Moderne de L'individu; Revue ; février ; Paris;1978.

unity And function as a coordinated and integrated system and has special independence in the circle of the center to which he belongs.

مدخل:

في البدء يجب التنبيه إلى عدم وجود تعريف جامع مانع لمفهوم الفردانية، إذ تشتق كلمة فرد l'individu من اللاتينية individuum وهي تعني الجزء الذي لا يتجزأ. وهذا يؤسس لقيام مفهوم الفردانية على مبدأ الكينونة التي تمتنع على التجزئة وفي هذا السياق يبين قاموس دورات d'Auzat إن هذه الكلمة ظهرت عام 1826 في جريدة globe الباريسية كنقيض لكلمة اشتراكية socialisme. ويأخذ مفهوم الفردانية صورته الاشتقاقية من المفهوم اللاتيني individualisme مما يعني أن المفهوم يقابله مفهوم الجمعية. وعلماء الاجتماع يقارنون اليوم بين مفهوم الجمعية (ويعني الحالة التي يكون فيها الفرد نسخة متكررة عن الجماعة التي ينتهي إليه sociabilité) وبين مفهوم الفردانية.

إنها الحالة التي يكون عليها الفرد كيانا مستقلا ومتفردا عن الجماعات التي ينتمي إليها وقادرا على اتخاذ قراراته استنادا إلى إمكانياته الخاصة وقدراته المستقلة. كما تعتبر نزعة أو سلوك يؤكد على الخصائص الذاتية للفرد وعلى سماته ومميزاته الخاصة وذلك بما يتعارض مع ما هو جمعي وعام ومشارك وهذا يعني أن الفردانية تؤكد ما هو خاص ومتفرد - إن الفرد وفقا لهذا المفهوم الفردانية كائن إنساني يمتلك وحدته الداخلية ويؤدي وظيفته كنسق ونظام متكامل ويملك استقلالية خاصة في دائرة الوسط الذي ينتهي إليه.¹

لقد صارت الديمقراطية في عصرنا ضرورة لا غنى عنها، واختيارا مفرمنا، فهي معيار صلاحية الاختيارات الأخرى على صعيد السياسة والاجتماع والاقتصاد، إنها ما يمنح هذه الاختيارات الأخرى جميعها بعدها الإنساني.² والديمقراطية بوصفها بعدا يضيف صبغة إنسانية على حياة المجتمع ويجعلها ممكنة في إطار التعايش والتضامن بين الأفراد والكفاءات وبين مكونات المجتمع المختلفة اثنا ولغويا وعقائديا وإيديولوجيا، وقد يؤدي غياب البعد الديمقراطي للمجتمع يؤدي إلى التنافي وتبادل الإقصاء بين مكوناته.

1 - Louis Dument; Le Concept Moderne de L'individu; Revue ; février ; Paris;1978.

2 محمد وقيدي. مدارات فلسفية، عدد4. تصدر عن الجمعية الفلسفية المغربية . ص 39.

إذا كانت النزعة الفردية قد أسهمت و بشكل كبير في إرساء أسس النهضة الزراعية و الصناعية في أمريكا بل و في تأسيسها بالذات فان تلك النزعة تساهم اليوم في هدم ما تم بناؤه سابقا.1 ولأن البراغماتية فلسفة أمريكية أساسا ، تُربط بالعديد من خصائص المجتمع الأمريكي خاصة المتمثلة في الفردانية و الحرية والديمقراطية.2 وبالتالي ، إذا كانت الفردانية التي تميز المجتمع و العقلية الأمريكية طبيعية، في ما يرى البعض حيث لا وجود لفواصل في أمريكا بين الطبقات، هذه الفردانية تزداد تأكدا في هذه الفلسفة إذ الحقيقة بالنسبة إليها ذاتية و نسبية لأنها فردية.

لقد طرح " توماس قرين Thomas Hill green " ت 1882 . نظرتة حول الفردانية التي سادت في القرن السابع عشر ليستبدلها بنظرة مستوحاة من جون ستيوارت ميل . أي بفردانية تتطور و تتحسن بفضل الإسهام المستمر للأخريين الذين يؤسسون بذلك حق الفرد أمام أو اتجاه المجتمع. الذي عليه إن يساعده على تحقيق أهدافه و مصالحه و ذاته تحقيقا يتمثل أساسا في الرفاهية، و في التقدم بالنسبة للجميع. و يطرح فكرة الخير المشترك الذي هو عبارة عن تداخل بين المصالح الفردية ومصالحة الجماعة و يحول هذا الخير المشترك إلى أساس في الأخلاق أو الالتزام السياسي. كما نجد "جون راولز John Rawls" يعتبر من بين الفلاسفة المعاصرين، الذي أسهم من خلال كتابه الشهير "نظرية العدالة Théorie de Justice" من محاولة توفيقه بين كل من الحرية و العدالة والمساواة بما يتلاءم والمبادئ الاخلاقية. على اعتبار العدالة عنده هي الإنصاف فإنه يؤسسها على مبدأي التوحيد والتفريق. فكل الناس أحرار ولهم الحق في النسق الموسع للحرريات الأساسية بالتساوي (المساواة) ولكن من الطبيعي أن ينتج عن هذا النسق الموسع للحرريات فوارق اجتماعية و اقتصادية هائلة بين الناس. فمن مرتكزات الديمقراطية الليبرالية ألا تطغى الأغلبية على الأقلية أو ما يسميه "الكسيس دي توكفيل" بالاستبداد الحديث "Tyrannie Moderne" ، كما تفضل الليبرالية التمثيلية على الديمقراطية المباشرة، والدستور على سيادة الشعب، والحقوق والحرريات على الحقوق والواجبات. ولكن " راولز" في الوقت نفسه لا يقبل الفوارق الناجمة عن توسيع النظام العام للحرريات الأساسية، الفوارق المقبولة والمستساغة أو المسموح بها " Tolérable " هي تلك التي في مصلحة الجميع وما الظلم أو

1 فوكوياما : نفسه، ص301.

2- Gérard Deledalle: La Philosophie Américaine, Bordeaux, Les Presses des imprimeries Delmas, 1983. p13.

الجور injustice في الحقيقة سوى تلك الفوارق.. و مع ذلك "راولز" كفيلسوف ليبرالي يستسيغ اللامساواة لأنها ثمن الحرية حتى وإن كان يشترطها بمصلحة الجميع، من غير المعقول انتزاع ما يعود إلى المحظوظين الأكثر إنتاجا و منحه للمحرومين الأقل إنتاجا. لانه في نهاية المطاف لا يوجد ما يمكن اقتسامه أو توزيعه، فالأكثر إنتاجا سيصبحون أقل إنتاجا، وهذا نقد مبطن للاشتراكية والشيوعية لا يمكن التفريط في الحرية من أجل المساواة مهما كانت الدواعي والمبررات. فاللامساواة هي الثمن الذي يتوجب دفعه لنيل الحرية والحيلولة دون الانزلاق إلى التوتاليتارية¹.

البراغماتية والحرية الفردية:

هناك صراع بين الحرية و المساواة أمام القانون من ناحية وبين المساواة المادية من ناحية أخرى. فالمساواة أمام القانون و التي تتطلبها الحرية تؤدي بالضرورة إلى عدم المساواة المادية، وتصبح الحرية و المساواة أمام القانون في خطر وينادي الليبراليون و يدمجون الحرية و المساواة في مفهوم مركب هو "الحريات المتساوية". فالحريات هي حقوق و جب أن يحوز عليها الجميع لأنها تهدف إلى حماية الفرد من تجاوزات الأفراد الآخرين، وكذا حمايته من عنف النظام السياسي الذي يستبج لتعسف الأكثرية التي تمثل المجتمع، والذي لا يجد حريته سوى قتل حريات الآخرين، السلطة من حقها الدفاع عن مكتسباتها القانونية.

فالخطر فيما يرى "ماكس فيبر" يبقى، كون أفكار الأكثرية يمكن أن تهدد عمل الأقلية منها، على أن المساواة الاقتصادية التي تنجم عن حكم الأغلبية و طغيان ميولها في التأثير على الأقلية قد تنجم عنها تهديدا للحرية، و طغيان ميولها في التأثير على الأقلية قد تنجم عنها و بسهولة تهديدا للحريات و التي تتمثل في الدستور الأمريكي جزءا من الاعتراف بالسعي و النشاط نحو الثروة و تحقيق الملكية الخاصة، فالأغلبية في إمكانها استخدام القوة السياسية في إعادة توزيع الملكية و الأشكال السياسية للحصول على السلع و الخدمات التي قد لا يحصل معظم أفراد المجتمع. فالدستور الأمريكي مثلا يضع الملكية الخاصة في ظل أعلى حماية يمكن إدراكها و من ثم فقد خلق "المجتمع الأول" في العالم الذي يقوم على أسس اقتصاديات السوق الحرة و بتقديم رؤية مفصلة لمفهوم الحرية. باعتبارها حرية الإنسان في سعيه من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من مصالحه الخاصة. هذا الإحساس و كما أشار "ماكس فيبر" يوجد في مجتمع

1 محمد هاشمي: في مفهوم العدالة عند "جون راولز" مجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية، 2002، العدد 18، ص 49.

يقوم على أساس قوة التعاقد يفتح المجال أمام مجتمع يدعو إلى مناصرة مبدأ السعي والنشاط الفردي. "فكرة الحرية هنا لها بعدان هما حرية سعي المرء وراء تحقيق أهدافه الخاصة، وحرية تمنعه بعدم تدخل الآخرين في مساعيه تلك . ويمكن إعطاء أي بعد من هذين البعدين مداه بالكامل"1. لكن شريطة أن تكون نابعة من مبدأ تكافؤ الفرص في الوظائف والوضعيات، ولا يرى "راولز" غضاضة في اللامساواة إذا كانت في مصلحة الأكثر حرمانا، و الأقل حظا من الناس، وإذا كانت أيضا حاصلة تكافؤ الفرص التي يتبعها النظام الليبرالي. غير أن هذا الأمر يعارضه "هابرماس"، ويسمى بحجاب الجهل "le voile d'ignorance" و ينزلها منزلة الوضعية الأصلية للبشر. في حين يعتبر "راولز" إن اختيار الناس للعدالة هو الاختيار العقلاني عن جدارة لأن العدالة تدمج بين الحرية والمساواة ولا يمكن تصور اختيار ما يعارض كونهم أحرارا ومتساوين أو أندادا.2 وإذا كانت الحقوق والحريات السياسية لا تضمن المساواة في السلطة أو التأثير فلا مجال لإنكار دورها وأهميتها في العملية الديمقراطية فهي تفسح المجال وتوفر الفرص أمام المشاركة والتأثير. وإن كان بدرجات متفاوتة ومن بين هذه الحقوق المتساوية: الحق في حرية التفكير، حرية التعبير وهناك مجموعة أخرى من الحقوق المدنية وعلى رأسها الحق في الحياة، في الملكية الخاصة والأمن الشخصي. إن الفرد وكما يرى "ادم سميث" وهو يعمل من أجل مصلحته الخاصة لا يدري أنه يعمل أيضا من أجل تحقيق المصلحة العامة، إنها اليد الخفية التي من خلالها يحقق الإنسان مصالحه و يحقق معها المصلحة العامة، أما أولئك الذين يدعون إنهم يعملون من أجل المصلحة العامة فهم أقل المساهمين فيها، فكل منا له الحرية في السعي من أجل تحقيق أهدافه ومصلحته مثلما لغيره الحرية في السعي إلى تحقيق نفس الغاية.3 هذا ما أكدته "فولتير" في قوله "قد اختلف معك في الرأي لكنني سأدافع دائما عن حريتك".

إن انتشار ظاهرة العنف والتعصب يعني ذلك غياب ثقافة الاختلاف وسيادة عقلية التحريم أو التجريم بشتى طرقه وأساليبه ووسائله سواء على الصعيد الفكري أو السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي والمطلوب في هذه الحالة ليس تقليص دور الدولة في

1 ج.م. هيرسون: سياسات و افكار. دراسات علمية تحليلية لمفهوم النظرية السياسية الاجتماعية مع تطبيقاتها على واقع السياسة الأمريكية العامة، ترجمة صلاح الدين شريف، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة. ص 44.

2 محمد هاشمي: في مفهوم العدالة عند "جون راولز" مجلة مدارات فلسفية.

3 عبد العزيز محمد الدخيل، ضمن العولة والفرد والدولة والديمقراطية، نحو مشروع حضاري نهضوي عربي، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001. ص 73.

المجتمع، بل تعزيز هذا الدور و ترشيده. فحق التملك ليس إلا حرية التملك ، و حق الأمن ليس إلا حرية الحركة، و حق التعبير هو في النهاية حرية التعبير. يرى "هيجل" في هذا الصدد أن "الحق في الحرية الذاتية يشكل النقطة الحاسمة و المركزية، التي تجسد اختلاف الأزمنة الحديثة عن العصور القديمة في" فلسفة الحق". كما اعتبر "روسو" الحرية صفة أساسية للإنسان و حق غير قابل للسلب و غير قابل للتصرف "العقد الاجتماعي". إن تحقيق المنفعة الشخصية و الجري وراءها طبيعة إنسانية تحتاج إلى تهذيب لكي تصبح معينا و صديقا للرفاهية الاجتماعية و ليس عدوا لها. و أن التنافس الحريين كل الأفراد، هو النظام الكفيل كترشيد تلك الرغبة الفردية و جعلها تعود بالنفع على الفرد والأمة على حد سواء. إن إعلاء فكرة الحرية قد أدى إلى الحط من فكرة السلطة، و أن تفرغ السلطة من الشرعية أو الحقوق يحيلها إلى مجرد استخدام للقوة.

خاتمة:

في الأخير، اننا نعتقد أن الحدود التي تفصل بين هذه الفردانية و بين الآخر لا تبقى ثابتة حيث هي، فهي لا تقف عند حدود هذا الأنا ، إنها تشمل الزمان و تتخذ من المكان شكل جديد من أشكال هذا التوسع. فهناك جانب أساسي في طبيعة الإنسان يجد فيها نفسه منفرد منفصل و مستقل فيها عن الآخرين، هذا الجانب الذي يجد فيها نفسه منعزلا عن الآخرين هو ما يحقق له الاستمتاع بحقه بعيدا عن المجتمع. و ما التزاوج الحاصل بين الليبرالية كعقيدة و معرفة و طريقة للنجاح و بين البرغماتية كمذهب فلسفي في العمل الديمقراطي الفاعل في الواقع المعاش، إلا سعي حثيث في ابراز الفردانية كمفهوم محايد لما يشهده العالم من تطور على مستوى الحقوق والوجود والتمركز في قلب كل تفكير مستقبلي مما يضمن تطوره أكثر فأكثر بتطور حاجياته ومتطلباته.

المراجع:

- 1- Louis Dument; Le Concept Moderne de L'individu; Revue ;février ;Paris;1978.
- 2 - محمد وقيدى. مجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية، عدد 4.
- 3 - فوكوياما فرنسيس. نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين احمد امين ، ط1. 1993. مركز الاهرام للترجمة والنشر. القاهرة.
- 4- Gérard Deledalle: La Philosophie Américaine, Bordeaux, Les Presses des imprimeries Delmas, 1983.
- 5 - محمد هاشمي: في مفهوم العدالة عند "جون راولز" مجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية، العدد 18، 2002.
- 6 - ج. س. هيرسون: سياسات و افكار، دراسات علمية تحليلية لمفهوم النظرية السياسية الاجتماعية مع تطبيقاتها على واقع السياسة الامريكية العامة، ترجمة صلاح الدين شريف، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.
- 7- عبد العزيز محمد الدخيل، ضمن العولمة والفرد و الدولة و الديمقراطية، نحو مشروع حضاري نهضوي عربي، مركز الدراسات الوحدة العربية . بيروت، 2001.